دور المنظمات الدينية في تشكيل صورة الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر - مقاربة تاريخية

زكريا صادق الرفاعي

أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة المنصورة، جمهورية مصر العربية

الملخص

كان الهدف الرئيس لهذه الدراسة الوقوف على صورة الإسلام في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، ولأسباب عديدة فإن الرؤية الأمريكية تجاه الإسلام كانت عدائية وسلبية، وعوضاً عن محاولة فهم الإسلام من داخله كما هو، فإن المنظمات الدينية الأمريكية عززت بقوة من تلك الصورة النمطية والسلبية.

مقدمة

يكاد الجميع يتفق على أن الصورة الذهنية الراهنة للإسلام في الولايات المتحدة لا تبدو إيجابية في مجملها ويشوبها كثير من أوجه النقص ربما عن قصد أو غير قصد، وبطبيعة الحال فإن ذلك قد يعود لأسباب متباينة، ولاعتبارات عديدة طغى عليها – في الأغلب – الجانب السياسي، وقد أولى الباحثون – على تنوع مشاربهم – اهتماماً كبيراً لبحث تلك القضية بجوانبها المتشعبة، وكان حصاد ذلك ركاماً هائلاً من الدراسات التي لم تخل من فائدة محققة في هذا الشأن.

وتسعى هذه الدراسة لاستجلاء صورة الإسلام في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر ولاسيما الأثر البالغ الذي أحدثته المنظمات الدينية في هذا الصدد، ولعل الأهمية الرئيسة لهذه الدراسة تكمن في استحضار البعد التاريخي المفتقد – ربما في كثير من الأحيان – في غمرة الاهتمام المتزايد باستقصاء الجوانب السياسية والإيديولوجية الآنية وما لها من تداعيات، وعلى الرغم من أهمية الجوانب السابقة فإن بسط القضية في سياقها التاريخي يسهم – بلا ريب – في رؤية أفضل، خاصة أن الصورة الذهنية للإسلام لم تتشكل بين عشية وضحاها وإنما كانت حصاداً لتراكم طويل ترسب تدريجياً عبر قرون مضت وربما اختلطت فيها وقائع التاريخ بحيل السياسة والعصبية للدين.

ولعل التساؤل الرئيس لموضوع الدراسة يتمثل في الوقوف أولاً على النهج والآليات التي نحتت بوساطتها صورة الإسلام المبكرة في الولايات المتحدة، وقد أفضى ذلك التعرض ابتداء إلى رصد المحطات الرئيسة التي ولج منها الإسلام إلى الولايات المتحدة قبل القرن التاسع عشر لاستخلاص النظرة التي سادت تجاهه والتي صارت لاحقاً إرثاً فرض نفسه على الرأي العام، ليس بوسع أحد تجاهله، وتصدى المحور الثاني لمتغيرات القرن التاسع عشر وكان أبرزها هيمنة المنظمات الدينية ونشاطها على نحو موسع في أرجاء الداخل الأمريكي، وكانت لها – بالطبع – رؤيتها وقناعتها الخاصة والمؤثرة تجاه الإسلام والمسلمين آنذاك.

كما عرض المحور الأخير بالضرورة لدور المنظمات الدينية وحضورها القوي في السياسة الخارجية للولايات المتحدة وموقفها إزاء الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، إضافة إلى تطورات المسألة الشرقية خلال القرن التاسع عشر، فضلاً عن النزعة الإمبراطورية التي كان لها حضورها وزخمها في الداخل الأمريكي بين النخبة ودوائر صنع القرار، التي استلهمت أيضاً عبر مسيرتها الإطار النظري والآليات العملية للتجربة التاريخية الأوروبية.

البدايات الأولى في تعرف الإسلام

من الصعوبة بمكان التكهن – على وجه الدقة – بالصورة المبكرة للإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية؛ بحكم تراكم وتباين العديد من الكتابات من جانب الأدباء والشعراء والرحالة ورجال اللاهوت عن الإسلام والشرق والعرب والترك[1]، وربما بدا أن الشعور بالدهشة كان غالباً في البداية، ولعل مما له دلالته في هذا السياق حديث القس الشهير "Cotton Mather" (1663–1728) في إحدى عظاته لمواطنيه في مدينة بوسطن بحماسة قائلاً "إننا في أرض بعيدة جداً، وعلى حد علمي لم يتنفس فيها محمدي من قبل"[2].

ويكاد الباحثون يتفقون على أن وصول الإسلام إلى الولايات المتحدة قد جاء من خلال ثلاثة مصادر رئيسة، كانت على النحو الآتي:

المصدر الأول: تمثل في تجربة نقل العبيد عبر الأطلنطي للعمل في المستعمرات الجديدة، خاصة مزارع السكر والتبغ والقطن[3]، وكان من بينهم – بالطبع – بعض من ذوي الأصول الإسلامية، خاصة القادمين من غرب إفريقيا، وليس هناك تقدير دقيق يمكن أن يعتد به في هذا الصدد، وفي نظر البعض فإن عددهم ربما وصل إلى عدة آلاف[4].

وكانت المنطقة التي تمثل المورد الأول لهؤلاء هي الممتدة من حوض نهر السنغال (وقد دخلها الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي) حتى حوض نهر النيجر الأعلى والأوسط، وكان بها بعض المدن، مثل "جنى" و"تمبكتو"، وضمت تلك المنطقة تركيبة سكانية متباينة اختلط فيها المسلمون بغيرهم، وظلت على

هذا النحو مسرحاً لنزاعات قبلية مسلحة، كان يعقبها بيع الأسرى كعبيد، وخلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر ساد الإسلام بين أغلبية السكان[5].

أما المنطقة الثانية فكانت سيراليون التي تعرف الآن بغينيا بيساو، إضافة إلى جزء صغير من ليبيريا، وكانت تلك المنطقة مصدراً رئيساً لتجارة العبيد منذ منتصف القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر، وقد استأثرت المستعمرات الإسبانية بنصيب الأسد من هؤلاء العبيد في البداية، ثم سيطرت فرنسا على تجارة المنطقة منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر، وحلت محلها إنجلترا في النصف الأخير من القرن ذاته، وكان شائعاً قيام تجار الرقيق بإقامة مخازن وحظائر لحفظ الرقيق المخطوفين حتى وصل عددها عام 1791 إلى أربعين قلعة[6].

وامتدت المنطقة الثالثة من مدينة الكاب إلى شواطئ ساحل العاج ولم يكن المسلمون بها يشكلون أغلبية بين السكان، إلا أن الصراعات القبلية، خاصة بين قبائل الفوتا المسلمة وغيرها من القبائل، إضافة إلى النشاط الاقتصادي السائد، أسفرت عن وجود مسلمين من بين الأسرى الذين تم نقلهم وبيعهم، ومن جهة أخرى فإن ساحل الذهب المعروف حالياً بغانا كان موضع ارتياد التجار الأوروبيين منذ القرن الخامس عشر، وصار في مطلع القرن السابع عشر بوابة كبيرة لتجارة الرقيق، كما نقل العديد من العبيد المسلمين المنتمين لقبائل الهوسا إلى البرازيل[7].

ورأى البعض أن وجود المسلمين في الولايات المتحدة ربما كان سابقاً على وجود المستعمرات البريطانية، فمستعمرة فلوريدا التي ظلت تحت السيادة الإسبانية خلال الفترة الممتدة من عام 1563 إلى 1763، كان بها أغلبية كبيرة من الرقيق الأسود من بينهم مسلمون، وكان الحال نفسه في مستعمرة لويزيانا الفرنسية[8]، ومما لاشك فيه أن المسلمين الأوائل قد جابهوا العديد من التحديات للاحتفاظ بعقيدتهم الدينية، فكانت لهم تجمعات صغيرة للصلاة، وإن لم تتح لهم الظروف تأسيس مدارس دينية، بل تعرضوا في كثير من الأحيان إلى

قمع منظم لطقوسهم الدينية والاجتماعية، وأجبروا في بعض الأحيان على اعتناق المسيحية[9].

المصدر الثاني: كان المصدر الثاني لتعرف الإسلام في العالم الجديد متمثلاً في تجربة الأسر واحتجاز العديد من التجار والبحارة الأوروبيين والأمريكيين من قبل القراصنة في شواطئ شمال إفريقيا، وتفاقم أثر تلك الظاهرة، على نحو خاص، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر[10]، ففضلاً عن تداعياتها العسكرية التي عرفت في الأدبيات الأمريكية باسم "حرب البرابرة"[11]، كان لليوميات التي نشرها بعض الأسرى عقب عودتهم عن تجربتهم ومعاناتهم - بالغ الأثر السلبي على الرأي العام تجاه الإسلام والمسلمين[12].

وقد راجت في البداية النصوص المبكرة التي كتبها الإسبان والفرنسيون والإيطاليون؛ خاصة أن أغلبها ترجم ونشر بالإنجليزية، وتضمن بعضها قوائم بأسماء الأسرى الذين تم احتجازهم في شمال إفريقيا[13]؛ مما أثار موجة من الحنق والغضب، وإن كانت تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن نظرة العنف التي صارت لصيقة بالإسلام انصرفت على نحو خاص إلى منطقة غربي البحر المتوسط؛ نظراً لتواصل أعمال القرصنة، وإن كانت تلك النظرة أقل حدة بالطبع في بقاع أخرى، من مثل تركيا وفارس والهند؛ فكان بوسع الأجانب التنقل والعمل بأمان[14].

وكانت من أوائل اليوميات التي نشرت في بريطانيا عن تجربة الأسر تلك التي أصدرها "Richard Hakluyt" عام 1589، وقد أشار في يومياته إلى أن تجربة الأسر قد تكون مفيدة في تقديم معلومات ذات طبيعة استخبارية عن العالم الإسلامي؛ حيث لا تزال هناك جوانب كثيرة مجهولة عنه[15]، كما أن "William Okeley" قد أرسى نموذج أنجلو أمريكي عن الأسرى الذين تم احتجازهم، عندما نشر يومياته عام 1675 واصفاً فيها ما لاقاه من أهوال ومعاناة من المسلمين[16].

وعادة ما كان ينظر في الولايات المتحدة بهلع ورعب لتجربة الأسر التي مر بها بعض المواطنين من قبل ما أسماه ال قس "ماذر" بـ"الوحوش الإفريقية"

و"المحمديين الترك والمغاربة" و"الشياطين الأشرار"[17]، ومن القصص المهمة قصة أسر الكابتن William Foster وابنه من مستعمرة ماساتشوستس؛ حيث تم احتجازهما لمدة ثلاث سنوات، وطوال تلك الفترة خصصت الكنيسة يوماً للصلاة من أجل إطلاق سراحهما، ومن القصص المتداولة أيضاً وقوع "Joshua Gee" في الأسر عام 1680، وقد أكد بدوره لاحقاً في مذكراته طابع القسوة من جانب المسلمين حتى صارت قصص الأسر أمراً شائعاً في الأحياء الفقيرة، بل صارت وسيلة للاستجداء وطلب الإحسان في كثير من الأحيان[18].

ومن ناحية أخرى كانت لتجارب الأسر صداها على الأدبيات الشائعة مثل يوميات "Francis Brooks"، التي كانت بعنوان "قسوة البرابرة"، وقد أهداها إلى الملك William والملكة Mary ليتعرفا الحالة البائسة للأسرى الإنجليز لدى "البرابرة المستبدين وغير الإنسانيين"، وكان الكتاب مليئاً بالقصص التي عززت المعاني السابقة، لعل من أبرزها احتجاز فتاة بريطانية عذراء والاعتداء عليها ثم تعرضها للإجهاض، وإجبار الأسرى على الدخول في الإسلام، والزعم بإصرار أن ممارسات العنف مستمدة من "تعاليم الإسلام ذاته"[19].

والواقع أن ذكريات الأسر قد تركت أثراً باقياً - بلا ريب - بين المستوطنين الأوائل؛ فقد تباهى "John Smith" - أحد مؤسسي مستعمرة جميس تاون في سيرته الذاتية - بأنه حارب الترك في المجر قبل وقوعه في الأسر، ووصف لحظة نجاحه في قتل ثلاثة من الأتراك بأنها لحظة مجيدة في حياته، وقد صاحبه هذا الشعور بعد هجرته إلى العالم الجديد[20].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود نموذج آخر مغاير لتجربة الأسر، وإن كان فيما يبدو محدوداً وأقل ذيوعاً بين أوساط الرأي العام، وقد أشاد فيها أصحابها بحسن المعاملة خلال فترة الأسر، منها شهادة أحد رجال الدين الإسبان وهو "Bernardo de Monroy"، وقد أرسل عدة رسائل في 16 مايو 1612 من الجزائر، عبر فيها عن إعجابه بإدارة الترك والمغاربة وحرية الممارسات الدينية، ولعل الشهادة السابقة قد اكتسبت أهميتها باعتبارها صادرة عن أحد

رجال الدين، وعلى النحو نفسه عبر "Jerónimo Graciän" في شهادة مماثلة؛ حيث ظل بالأسر في تونس ما بين عامي 1593 و 1595[21].

وفي تقدير البعض – وإن لم يذكر السبب – أن الترك والمغاربة قد أبدوا – بصفة عامة – احتراماً كبيراً تجاه الأسرى الإسبان، وهو ما كان مثاراً للدهشة، وعادة ما قدموا لهم تبرعات للكنيسة مثل الشموع والزيوت والإضاءة، كما تبرعوا بالمال في الأعياد على الرغم من وجود بعض الاستثناءات أحياناً، مثل ما حدث عام 1579 حينما حث أحد رجال الدين من المرابطين الحاكم على عدم السماح للأسرى المسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية[22].

ومن بين الشهادات الجديرة بالذكر أيضاً – في هذا الصدد – ما ورد في رسائل القنصل الأمريكي في تونس "William Eaton" إلى زوجته في فبراير عام 1799، وقد أوضح فيها بصراحة كبيرة أن معاملة الأسرى المحتجزين من قبل البرابرة أكثر إنسانية مقارنة بالمعاناة التي يتجرعها العبيد الأفارقة من جانب سادتهم "المتحضرين في الولايات المتحدة"[23].

ولعل التباين في الشهادات على النحو السابق ما بين الذم والمدح، توجب الأخذ بعين الاعتبار في هذا المقام مراعاة الفروق بين نصوص اليوميات المتعلقة بتجربة الأسر باعتبارها تجارب ذاتية لها خصوصيتها، كما غلب على بعضها السرد والإطالة منذ منتصف القرن السابع عشر، وصار كثير من أصحابها يقدمون أنفسهم – في الأغلب الأعم – على أنهم مغامرون وأبطال، بينما كانت النصوص الأولى مشوبة بكثير من مشاعر الاضطراب والخوف بصورة واضحة[24].

على صعيد آخر لفت البعض الانتباه إلى قيام بعض الحكومات الأوروبية بتشجيع الأسرى على كتابة يومياتهم ونشرها بهدف استغلال معاناتهم وتوظيفها في الدعاية لأغراضها، وفي الوقت نفسه سعى بعض الأسرى لتقديم أنفسهم على أنهم خبراء وعلى علم ببواطن الأمور في العالم الإسلامي ورهنوا أنفسهم في خدمة السلطات الحكومية[25].

وفي الأغلب فإن يوميات الأسرى تركت أثراً باقياً على جميع الطبقات الاجتماعية، ورسخت الصورة الذهنية العدائية تجاه الإسلام والمسلمين في أوروبا، وامتدت آثارها بدورها إلى العالم الجديد، وتضاعف العداء أكثر بتعارض المصالح الاقتصادية وحقوق الإبحار والتجارة في المقام الأول أكثر من كونه عداء دينياً بين الإسلام والمسيحية[26].

والمثير للانتباه في هذا الصدد هو تبني الرأي العام الأمريكي لنظرة الشك والريبة تجاه الموقف البريطاني والفرنسي من أعمال القرصنة في سواحل شمال إفريقيا؛ إذ كان بوسع الدولتين – وفقاً لهذا الرأي – القضاء على ذلك التهديد في مهده أو إضعافه على الأقل، إلا أنهما – فيما بدا – اعتبرا ذلك أمراً مفيداً لهما من الوجهة الاقتصادية، فاستمرار تلك الحوادث أسهمت – بلا شك – في إضعاف أية منافسة محتملة لهما في البحار المفتوحة، وهذا ما أيده اللورد "Sheffield" حينما كتب عام 1783 بأنه إذا تم قمع القرصنة في شمال إفريقيا فسيكون ذلك مشجعاً للدول الصغيرة، مثل إيطاليا، على زيادة نفوذها البحري والتجاري، بل إن Benjamin Franklin عبر عن ذلك بقوله: "لو لم تكن هناك الجزائر لظل ذلك كارثة لبريطانيا ريثما تشرع في إيجادها"[27].

المصدر الثالث: تعلق هذا المصدر بالتأثير المصاحب للكتابات التي شاعت وانتشرت عن الإسلام في العالم الجديد، وقدمت من أوروبا بصفة عامة وبريطانيا على نحو خاص، وأعيد إنتاجها مراراً في مناسبات مختلفة[28]، وكانت من أبرز الأدبيات التي راجت كتاب "Humphrey Prideaux" الذي صدر أولاً في لندن عام 1697 وطبع مراراً وبلغ عدد طبعاته نحو ثماني طبعات بحلول عام 1723، وليس هناك أحد في المستعمرات البريطانية إلا وسمع أو قرأ عن الكتاب وما تضمنه من مزاعم، وظهرت الطبعات الأمريكية أولاً في فيلادلفيا عام 1796، ثم في فيرمونت عام 1798؛ أي خلال فترة المواجهات مع دويلات شمال إفريقيا، وعلى الرغم من أن الكتاب مليء بالأخطاء والترهات فقد ترك أثراً بالغاً على المستوطنين تجاه الإسلام والمسلمين[29].

وعلى الشاكلة نفسها ذاع أيضاً في العالم الجديد كتاب "حياة محمد"

للكاتب "Boleyn villiers"، الذي ظهرت ترجمته الإنجليزية في لندن عام 1731، وبدا أكثر إيجابية من العمل السابق، بل كان رداً عليه في كثير من الأحيان، وتبنى وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية التي سادت في أوائل القرن الثامن عشر إزاء الإسلام، ووجه لوماً إلى ما اعتبره فساد الكنائس الشرقية التي حرفت المسيحية وحملها المسؤولية في النهاية عن انتشار الإسلام، وفي المجمل لم ير المؤلف أن الإسلام يشكل تهديداً على المسيحية، ومن المرجح أنه لم تكن هناك طبعة أمريكية للكتاب على الرغم من ظهوره ضمن قوائم سجلات مكتبة فيلادلفيا العامة عام 1741[30].

وفيما يبدو أنه سادت قناعة لدى العديد من المستعمرات الأنجلو أمريكية أن الإسلام قد انتشر وتوسع بحد السيف على نحو ما أوضح "Thomas Paine" الذي أشار إلى أن الديانات مثل الإسلام والكاثوليكية قد اعتمدت على المعجزات الزائفة والعنف، وكرر الأمر نفسه "John Walton"، كما ادعى "Gilbert Tennent" أن تلك الديانات "كالمحمدية قد اعتمدت على تمجيد الذات"[31]، بل إن بعض الكتابات، مثل عمل "John Hayward" الصادر عام 1843 وكتاب "Henry Jessup" عام 1879، اعتبرت أن المسلمين أكثر الجماعات الدينية عنفاً على الإطلاق ولا يبدون أي تسامح تجاه الآخرين[32].

وعلى المستوى السياسي، فغالباً ما كان يشار إلى الدول الإسلامية باعتبارها المثال الأسوأ في الطغيان والاستبداد والقمع[33]، وهي السمات التي قامت الثورة الأمريكية لمناهضتها، كما لقيت آراء "Montesquieu" رواجاً كبيراً ولاسيما وصفه للحكومة التركية بالاستبداد المطلق، وصار ذلك فيما بعد معتقداً شائعاً لدى العديد من الثوار الأمريكيين[34].

ومن الغريب أنه حينما احتدم النقاش حول بعض مواد الدستور الأمريكي عامي 1787 و1788 استخدم الرافضون لمبدأ الاتحاد مصطلح "الاستبداد التركي" لمهاجمة المقترحات الحكومية على نحو ما فعل "Patrick Dollard" أحد القادة السياسيين من ولاية كارولينا الجنوبية، كما استخدم الاتحاديون

بدورهم المصطلح نفسه مثل "Alexander Hamilton" لتعزيز دعوتهم في الدفاع عن حكومة مركزية قوية تحتاج إليها البلاد[35].

وكثيراً ما تم الخلط بين الإسلام والترك[36]، كما أن التوسع العسكري العثماني آنذاك أفضى بدوره إلى النظرة للإسلام باعتباره تهديداً عسكرياً، وفي أحد النصوص المبكرة عام 1519 كتب أحدهم أن محمداً هو نبي الترك ،وحتى عام 1709 كان ينظر للإسلام على أنه الدين التركي كما صار لصيقاً أيضاً بأعمال القراصنة في شمال إفريقيا[37].

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أخذت ظاهرة الأسر واحتجاز الأسرى في التراجع وخفتت حدتها نسبياً، وشرعت بعض المجلات الأمريكية السيارة تنشر تدريجياً نتفاً عن العالم الإسلامي[38]، وترددت أسماء المدن، مثل إستانبول وبغداد[39]، وكتب Edward Gibbon عن إعجابه بشخصية النبي محمد في الفصل الخمسين من كتابه عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية الصادر في لندن عام 1788، كما عالج Guillaume Alexandre في كتابه "نظرة على تاريخ العالم الحديث" الصادر عام 1779 التوسع الإسلامي باعتباره ظاهرة تاريخية في المقام الأول[40].

كما ترجم ونشر كتاب الرحالة Volney "رحلة إلى مصر وسوريا" في نيويورك عام 1798،وكان قد صدر أولاً عام 1785 وقدم فيه رؤيته للأوضاع الاجتماعية، وقد أشاد بكرم المسلمين السوريين وأمانتهم عن نظرائهم الأوروبيين، كما تطرق إلى الإيجابيات والسلبيات التي تعلقت غالباً بالممارسات السيئة للسلطة العثمانية، وباختصار فإن عمل (فولني) قد ضمنه قضايا متنوعة في التاريخ والعادات والتقاليد والثقافة والدين[41].

وقصارى القول إن ثمة صورتين للعالم الإسلامي قد علقت بالذهنية الأمريكية، الأولى وهي مشوبة بالخوف والكراهية وقاصرة جغرافياً على غرب البحر المتوسط؛ حيث أعمال القرصنة واحتجاز التجار والرحالة الأوروبيين والأمريكيين في شمال إفريقيا، وساعد على استمرارها الآثار السلبية التي تركتها بعض يوميات هؤلاء في الأسر والاحتجاز، وامتزج فيها الجانب الديني بالتهديد

والتربص بالمصالح الاقتصادية بصورة أو بأخرى، بينما احتفظت الصورة الثانية بالطابع الإيجابي أو على الأقل بحياديتها إن جاز التعبير، فلم تكن هناك – على ما يبدو – تلك النظرة العدائية الحادة تجاه العالم الإسلامي في فارس وتركيا والجزيرة العربية.

عود على بدء - استئناف العداء مجدداً

لم تكن النظرة الإيجابية تجاه الإسلام التي سادت في أواخر القرن الثامن عشر لتدوم طويلاً، بل كانت ومضة وسرعان ما خبت، وعادت مشاعر الكراهية والخوف تطل برأسها من جديد؛ حيث نشطت أعمال القرصنة في شمال إفريقيا مرة أخرى، وكان الكونجرس قد أرسل وفداً عام 1784 للتفاوض مع دويلات شمال إفريقيا لضمان سلامة السفن التجارية الأمريكية في البحر المتوسط، ونجح في الوصول إلى اتفاق فقط مع المغرب سنة 1787 وفشل في عقد اتفاق مماثل مع ليبيا وتونس والجزائر، وكانت الولايات المتحدة تدفع رسوماً للمرور شأنها شأن العديد من الدول الأوروبية، إلا أنها قررت الامتناع عن دفع تلك الرسوم، وتفاقمت الأمور سريعاً إلى حروب متقطعة خلال الفترة من عام 1790 إلى عام 1815 [42]، وقوبل ذلك بعداء للأتراك في الموانئ الرئيسة، مثل بوسطن ونيويورك، ونشرت الصحف البريطانية رسائل لبعض هؤلاء البحارة ودعت الحكومة الأمريكية إلى التدخل لحل المسألة بطريقة جذرية[43].

على أية حال ودون الخوض في تفاصيل عديدة فإن صفحة المواجهات العسكرية في شمال إفريقيا قد طويت، وحمل القرن التاسع عشر في طياته متغيراً جديداً على الساحة سرعان ما صارت له اليد الطولى في إدارة الأحداث، ونعني بهذا المتغير الدور الرئيس للمنظمات الدينية التي انتشرت بشكل كبير في مختلف أرجاء الولايات المتحدة.

ومن الأهمية بمكان التذكير في هذا الصدد بالحضور الديني الجارف للمستوطنين الأوائل، الذي مثل – دون شك – بيئة خصبة لتنامي دور تلك المنظمات لاحقاً، فأشار البعض إلى أن "القادة البوريتان قد جاؤوا إلى أمريكا

لإقامة مملكة الرب على الأرض"[44]، وبحسب رأي البعض فإنه من الصحيح القول إن الدين والمجتمع قد ولدا في الولايات المتحدة في وقت واحد[45].

ومن جهة أخرى فإن العديد من المستوطنين الجدد كانوا رواداً في الدراسات التوراتية، وعقب بزوغ نشاط المنظمات الدينية في جنبات البلاد، برزت قناعة لدى معظمها أن الدولة العثمانية عقبة في سبيل إنشاء وطن لليهود في الشرق[46]، ومن ثم يجب معارضتها والقضاء عليها[47].

وعلى صعيد آخر فإن إحدى النتائج البارزة المترتبة على حركة الإصلاح الديني لمارتن لوثر هي الدعم المحموم للتراث الديني اليهودي - المسيحي The Judeo-Christian Heritage في العالم الغربي، التي ذهب اليمين الأمريكي المتطرف إلى تسميته بـ "الصهيونية المسيحية" Christian Zionism[48]، واعتبر البعض أن تلك هي أكبر عملية تزييف في التاريخ تمت بصمت وتآمر، وهي عملية تهويد المسيحية[49]، بل بلغت حماسة البعض القول: "إن الغرض الأوحد من تأسيس وقيام الولايات المتحدة في نهاية المطاف هو الدفاع عن إسرائيل وتحقيق النبوءة التوراتية"[50].

وقد ساد اعتقاد راسخ لدى المهاجرين (كانوا يطلقون على أنفسهم لقب الحجاج) البروتستانت إلى العالم الجديد، خاصة القادمين من إنجلترا، أن العناية الإلهية قد اختارتهم للخلاص من فساد العالم القديم وآثامه، ولإنشاء مملكة الله في الأرض، وشبهوا أنفسهم بقبائل بني إسرائيل حال خروجهم من مصر إلى أرض كنعان، وأنهم في مهمة مقدسة لهداية العالم[51]، ونظروا إلى بعض الأحداث التاريخية على أنها علامات على طريق العودة الثانية للمسيح، مثل خروج المسلمين من الأندلس، ووصول كولمبس إلى العالم الجديد، واستنزاف مقدرات الدولة العثمانية، وعدوا ذلك جزءاً من الخطة الإلهية للتمهيد لعودة المسيح الثانية[52].

وكان من بين المنظمات الدينية التي فرضت نفسها على الساحة المجلس الأمريكي الأعلى للبعثات الخارجية (The American Board Of Commissioners For Foreign Missions) (ABCFM) الذي شكل عام 1812، وكان أول وأكبر

المنظمات الدينية الموزعة داخل الولايات المتحدة، وكان المركز الجغرافي الرئيس لتلك المنظمات قد تركز في الشمال الشرقي للولايات المتحدة بصفة عامة وبوسطن على نحو خاص، وكان المنخرطون للعمل فيها راوحت أعمارهم بين العشرين والثلاثين، وغالباً ما كانوا من ذوي الأصول الريفية حول مدن New England، كما تلقوا تعليماً جيداً في جامعات بارزة مثل Yale وPrinceton[53].

وإلى جانب المنظمة السابقة كانت هناك أيضاً أربع منظمات أخرى رئيسة وفاعلة، وهي المجلس الأعلى للبعثات الخارجية للكنائس البرسبتارية أو المشيخية[54] The Board of Foreign Mission of The Presbyterian Church (PFMBC)، ثم مجلس المنهجيين الجنوبي The Southern Methodist Mission Board، ومجلس المعمدانيين الشمالي The Mission Boards of Northern Baptists، وأخيراً "حركة الطالب المتطوع" The Student Volunteer Movement، وكانت المنظمة الأخيرة منذ نشأتها عام 1866 منوطة، على نحو خاص، بإعداد وتهيئة أعضاء البعثات الخارجية التي سرعان ما تزايدت بصورة ملحوظة من ستة عشر بعثة في عام 1860 إلى تسعين بعثة خارجية بحلول عام 1900؛ لتسبق الولايات المتحدة بريطانيا في مجال إرسال البعثات البروتستانتية الخارجية، بل إن نصف تلك البعثات حول العالم كان برعاية المنظمات الدينية الأمريكية.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الإستراتيجية الدينية التي اتبعتها تلك المنظمات، وتمثلت في رأي البعض في ثلاثة مبادئ رئيسة، أولها الإيمان الجازم منذ البداية بالعودة الثانية للمسيح، ومن ثم السعي لبناء مملكة الألف عام السعيد Millenarian، على نحو ما جاء في أعمال David Bosch، وأيضاً Samuel Hopkins، أما الإستراتيجية الثانية، فكان قوامها التوجه إلى الأقليات الدينية في الشرق، مثل المارون والأرمن والآشوريين، لتصحيح عقيدتهم ليكونوا نموذجاً مساعداً على تحقيق الهدف الرئيس، وهو جذب اليهود والمسلمين إلى المذهب البروتستانتي، وقد أطلق Rufus Anderson سكرتير المجلس الأعلى للبعثات ما بين عام 1826 وعام 1866 على تلك الإستراتيجية "التجربة الأعظم"، وتمثل

المبدأ الثالث فيما أطلق عليه مبدأ "التحضر والتمسح معاً" Civilizing and Christianizing من خلال تبني النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والتعليم والدعوة له بين السكان المحليين[55].

ومنذ البداية وضعت المنظمات الدينية الأمريكية نصب عينيها على الشرق؛ فكانت وجهة أولى بعثات المجلس الأعلى (ABCFM) نحو الهند؛ حيث عرضت شركة الهند البريطانية توفير الحماية والرعاية لها، ثم يممت البعثات شطرها نحو الدولة العثمانية في عام 1819 باعتبار أن الشرق هو موطن السيد المسيح وموطن العودة الثانية له أيضاً، بحسب اعتقادهم، وكان أبرز قادتها Pliny Fisk وLevi Parsons، لكنهما ما لبثا أن توفيا عام 1825، ثم تلا ذلك إرسال بعثتين في عام 1830، وتم تأسيس أول مقر للبعثات باستانبول، ولم تكن الطريق ممهدة أمام تلك البعثات أول الأمر، وقد شكلت الأوبئة والأمراض واختلاف الظروف البيئية تهديداً حقيقياً لأعضائها، وفي تقدير البعض فإن ما يقرب من ثلث العاملين بالبعثات الأمريكية في الشرق خلال الفترة من عام 1821 إلى عام 1846، قد لاقوا حتفهم عقب وصولهم بفترة وجيزة لأسباب متفاوتة[56].

على أية حال كانت البعثات الأمريكية من أنشط البعثات العاملة في الدولة العثمانية، وكانت الطباعة إحدى الأدوات التي تم الاعتماد عليها فحازت البعثات الأمريكية، منذ وقت مبكر، مطبعة في مالطة سنة 1822، ثم نقلت إلى أزمير عام 1826 لطبع الكتب الدينية بالتركية والعربية واليونانية وتوزيعها بين الناس[57].

ومن جهتها حثت الخارجية الأمريكية باستمرار سفيرها باستانبول على بذل ما في وسعه لإنجاح عمل البعثات الدينية[58]، وإن كانت تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الكنائس المحلية لم ترحب بقدوم البعثات الأمريكية على الرغم من المحاولات الحثيثة للتقرب منها، بل إن الكنيسة المارونية حثت السلطات العثمانية على منعها، كما اتخذت منها الكنيسة الأرمينية موقفاً غير ودي، ولكن حدث التقارب عندما اندلعت المواجهات بين تلك الأقليات والمسلمين، مثل الصدام الشهير بين الموارنة والدروز في لبنان عام 1860[59].

ثورة اليونان عام 1821

كانت ثورة اليونان ورغبتها في الاستقلال عن الدولة العثمانية من الأحداث البارزة التي كان لها صدى كبير في الولايات المتحدة بفضل جهود المنظمات الدينية، وأخذ الرأي العام الأمريكي يتساءل عما يجب على "الأمة الأمريكية أن تفعله لدعم الإخوة المسيحيين في اليونان"، صحيح أن الإعجاب بالحضارة والتاريخ اليوناني قد أسهم بنصيب في حشد وضمان تأييد الرأي العام، إلا أن العديد من الساسة والصحفيين ألحوا في كتاباتهم بلا كلل على طبيعة "الحكم البربري الذي مارسه الأتراك المسلمون ضد المسيحيين في اليونان"، ومن ثم اصطبغت القضية بالطابع الديني منذ البداية[60].

و بمرور الوقت اكتسبت قضية اليونان زخماً جديداً وصارت مثار اهتمام جميع الدوائر؛ فأرسل رئيس أركان القوات اليونانية Peter Mavromichalis خطاباً إلى وزير الخارجية الأمريكي John Quincy Adams في سبتمبر 1821 مطالباً فيه بدعم الولايات المتحدة، وقد وجد الخطاب طريقه إلى العديد من الصحف الأمريكية المحلية، كما أرسلت نسخة منه إلى "Edward Everett" الأستاذ اليوناني البارز بهارفارد والمحرر لدورية *The North American Review* الذي أعاد نشر الخطاب وعلق عليه مقارناً بين الثورة اليونانية والثورة الأمريكية، معتبراً أن الولايات المتحدة زعيمة معركة التحرير والحرية.

وأردف "إيفرت" أن هذا المجد يفرض على الولايات المتحدة مسؤولية تقديم المساعدة لليونان لنيل استقلالها من الأتراك الذين انتزعوا روحها منذ أربعمائة عام، ووصف ما يحدث في اليونان بأنه صراع بين الهلال والصليب، داعياً الولايات المتحدة لاتخاذ إجراءات فعلية وحاسمة، كما أثنى على دور البعثات الأمريكية بين اليونان الأرثوذكس[61]، وأضاف أن حرب الاستقلال في اليونان خطوة مهمة في الصراع الكوني بين الإسلام والمسيحية[62].

وعلى الرغم من إعلان الحكومة الأمريكية أنها تتبع سياسة الحياد[63]، فقد ألمح الرئيس James Monroe (1817–1825) في خطاب الاتحاد في 3 ديسمبر

إلى الاستبداد التركي، وحيا بحماسة استقلال اليونان، كما سعى بعض الساسة مثل "Daniel Webster" النائب عن ولاية ماساتشوستس لحمل الكونجرس على التدخل وإرسال لجنة أمريكية للتحقيق[64]، وعلى الرغم من تلك الدعوات الحماسية[65]، فإن وزير الخارجية الأمريكي كان من أنصار العزلة ولعب دوراً فعالاً في الإبقاء على سياسة الحياد وجعل تدخل الحكومة محدوداً[66].

ومن جهة أخرى فإن الصحافة المحلية في تغطيتها لأحداث الثورة، رددت النغمة ذاتها بإضفاء الطابع الديني على الصراع، فلم تعد ثورة اليونان حدثاً سياسياً يمكن فهم أسبابه وتداعياته، وصار ينظر إليه باعتباره صراعاً على الهوية الدينية بالدرجة الأولى[67].

وبالطبع ألقت النظرة السابقة بظلالها على مجمل العلاقات الأمريكية العثمانية التي شهدت تراجعاً حاداً، واتخذت الإدارة العثمانية بدورها موقفاً سلبياً تجاه الرعايا الأمريكيين، وعارضت توقيع اتفاقية تجارية مع أمريكا حتى عام 1830، ومن جهة أخرى فقد اجتاحت المدن الأمريكية حمى الدفاع عن "الهللينية"[68]، وأسهم ذلك في زيادة عدد المهاجرين اليونان طوال القرن التاسع عشر والترحيب بهم، كما كانت تلك النزعة مسؤولة بصورة أو بأخرى عن تصاعد العداء تجاه الترك طوال القرن التاسع عشر، ولعبت المنظمات الدينية والصحافة[69] دوراً بارزاً في إذكاء هذا العداء بإلحاحها المتواصل على وصف الأحداث على أنها صراع بين الهلال والصليب[70].

على أية حال تم استئناف العلاقات الأمريكية التركية عقب انتهاء ثورة اليونان، وشرعت السفن الأمريكية في التردد على موانئ البحر المتوسط، ومنها موانئ إزمير (سميرنا) والإسكندرية وبيروت، كما بدأ العديد من الرعايا الأمريكيين في التجول في أرجاء الدولة العثمانية، ونشر بعضهم مذكراته عقب عودته، وانتمت تلك الوفود عادة إلى ثلاث فئات، هم: التجار، والرحالة، وأعضاء البعثات التبشيرية[71].

وطوال تلك الفترة؛ أي منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت الكثير من الكتابات عن الدولة العثمانية، كما تبارى البعض في رسم وإشاعة صورة غامضة

وأسطورية حول بعض الجوانب الاجتماعية، ولاسيما الحديث عن الحريم والحمامات والقهاوي، وشيوع بعض العادات الغريبة، مثل إدمان الأفيون من جانب بعض الفئات الاجتماعية[72].

على أن ما سبق لا ينفي ظهور أعمال أخرى كانت أكثر موضوعية في العرض والأحكام عن الدولة العثمانية، مثل عمل "E.C.Wines" بعنوان (سنتان ونصف في البحرية) وصدر عام 1832، وقدم الرجل صورة وصفية للتنوع السكاني، وبدت آراؤه متعارضة مع الصورة التي أشاعها أنصار "الهللينية" كامتداحه لأمانة التجار الأتراك أكثر من غيرهم، ومن تلك النماذج أيضاً كتاب الرحالة "John Lloyd" بعنوان (رحلة إلى مصر والأراضي المقدسة)، وصدر في عام 1837 ووزع منه واحد وعشرون ألف نسخة خلال عامين، وعلى المنوال نفسه كتاب الرحالة "James De Kay" بعنوان (رحلة إلى تركيا) وظهر في عام 1833، ووصف الترك بأنهم ليسوا برابرة ولا جهلاء، وانتقد الصورة السلبية الشائعة في الكتابات الأمريكية، كما اعترض أيضاً على مشاركة بعض الأمريكيين في ثورة اليونان[73].

المنظمات الدينية والمسألة الشرقية

على الرغم من الومضات الإيجابية التي بدت في بعض الكتابات الأمريكية عن الدولة العثمانية على النحو السابق، فإن الحضور والزخم الديني للمنظمات والبعثات الدينية الأمريكية ظل هو صاحب التأثير الأقوى على الدبلوماسية والرؤية الأمريكية للمسألة الشرقية برمتها[74]، ويمكن القول إن النظرة التي سادت إبان ثورة اليونان منذ عشرينيات القرن التاسع عشر استمرت تشق طريقها بالكيفية نفسها، ووجدت تجلياتها في الأحداث اللاحقة.

فخلال أحداث حرب القرم (1853–1856)[75] ارتفعت بعض الأصوات في الصحافة الأمريكية المحلية تتساءل عما إذا كان واجباً على الولايات المتحدة التدخل لحماية الأقليات المسيحية الواقعة تحت الحكم العثماني، كما ندد آخرون بموقف بريطانيا المؤيد للعثمانيين باعتباره نابعاً من الدفاع عن مصالحها

وليس لدوافع إنسانية، وأشار البعض إلى أن الحرب قد غلبت في النهاية مبدأ الحفاظ على المصالح الإستراتيجية والاقتصادية وتوازن القوى، على حين توارى البعد الديني[76]، بل كثيراً ما ترددت عبارات اللوم للقوى الأوروبية لوقوفها إلى جانب ما سمي بـ "الاستبداد التركي"[77].

وعقب انتهاء حرب القرم وتوقيع صلح باريس في فبراير عام 1856 تساءل المحرر في جريدة *New York Observer* عن الضمانات الحقيقية التي تكفل للمسيحيين حقوقهم في الإمبراطورية العثمانية مذكراً مرة أخرى بالبعد الديني[78]، كما أشار أيضاً إلى أن أصدقاء المسيحية والحضارة يودون اتحاد كل من مولدافيا ووالاشيا في إقليم الدانوب "ليكونا معاً حاجزاً في مواجهة البرابرة المحمديين"[79].

وغالباً ما استغلت البعثات الأمريكية قوتها المادية والمعنوية في الداخل الأمريكي لتعزيز مركزها في الدولة العثمانية، وعلى الرغم من فشل تلك البعثات في سياستها التبشيرية، فإنها صارت، في معظم الأحيان، هي المنوط بها أمام الرأي العام نقل أخبار الأقليات المسيحية تحت الحكم العثماني، ومع تنامي الاتصالات الدولية وتمدد شبكة علاقاتها الدبلوماسية صار لها دور في السياسات الأوروبية والأمريكية، وكثيراً ما كان هناك تداخل بين دور البعثات والقنوات الدبلوماسية لوزارة الخارجية؛ إذ صار كلاهما ممثلاً رسمياً في السياسة، بل تم اختيار بعض القناصل من أعضاء البعثات مثل "James Angell" الذي شغل منصب وزير بالصين عامي 1880–1881، ثم منصب رئيس لمجلس البعثات الخارجية عامي 1893 و 1894، واختير لاحقاً وزيراً بتركيا لمدة ثلاث سنوات[80].

وبدا أن أحد الأسباب التي أوجدت نفوذاً قوياً للبعثات الأمريكية قد عاد إلى حرصها المتزايد على توثيق الصلة بالسكان المحليين، إضافة إلى تنسيقها الدائم مع الدبلوماسية الأوروبية[81]، ومن ثم نجحت في لعب دور الوسيط بين الأقلية المسيحية والسلطات المحلية العثمانية، كما استفادت تلك البعثات من عدم وجود مصالح أمريكية على نحو مباشر، وتبنت موقفاً أخلاقياً محايداً حظيت من خلاله برضا الأطراف المختلفة.

وكثيراً ما كانت البعثات الدينية موضع استشارة من جانب القناصل في كثير من القضايا المتعلقة بالسكان المحليين، كما صار شائعاً انخراط أعضاء تلك البعثات الدينية بصورة اعتيادية في العمل كمراسلين للصحافة الأمريكية وكمحاضرين في الداخل لجمع الدعم والتبرعات[82].

وقد تكرر دور البعثات الدينية مجدداً في أحداث لبنان حينما وقع الصدام بين الدروز والموارنة عام 1860، وعلى الرغم من إدراكها للأبعاد العرقية والسياسية للصراع فإنها - كالعادة - غلّبت العامل الديني، واعتبرته مواجهة بين الإسلام والمسيحية، وأعادت إلى أذهان الرأي العام مرة أخرى ما أسمته بظاهرة "العنف لدى المسلمين"، ونشر أحد المطبوعات طلب المساعدة "للمسيحيين في سوريا الذين تعرضوا لهجوم الإرهابيين والمتعصبين المحمديين"، وسرعان ما تبارت الصحف الأمريكية المحلية في نقل الرواية التي جاءت على لسان أعضاء البعثة الأمريكية باعتبارها وحدها لسان الحقيقة[83].

وصبت البعثة الأمريكية في لبنان جام غضبها على بريطانيا، واتهمتها بالسعي لتنفيذ أهدافها الخاصة على حساب الإنسانية والولاء الديني بتأييدها للدولة العثمانية والدروز، وكتب "William Eddy" مقالاً أشار فيه إلى انحياز الدولة العثمانية للدروز وشجعتهم على الفتك بالمسيحيين، كما وصف المسلمين بأنهم "متعطشون باستمرار لدماء المسيحيين"، ومع استمرار وتيرة العنف في التصاعد ارتفعت الأصوات مطالبة بالتدخل الدولي، ونقل عن أحد أعضاء البعثة البرسبتارية قولها إن الكثير من الناس ومنهم القس قد تم ذبحهم ومعهم الكثيرون من الأبرياء، وأن هذه الحرب الجديدة ضد الصليب قد أيقظت أوروبا مجدداً ودعتها للتدخل السريع[84].

وفي الداخل الأمريكي شكلت العديد من الجمعيات للخطابة وجمع التبرعات مثل "جمعية البؤساء السوريين"[85] في مدينة نيويورك، وكان بها أعضاء بارزون مثل "William Evarts" الذي صار لاحقاً وزيراً للخارجية، وأيضاً "Pelatiah Pelit" رئيس الغرفة التجارية في نيويورك وعدد من الساسة الآخرين، ونشرت تلك الجمعية وغيرها التقرير الذي أورده عضو البعثة الأمريكية "Jessup

Henry"، وواكب ذلك دعوات لتأبين الضحايا في مختلف الكنائس مع الحث على جمع المساعدات لهم[86]، وعندما أرسلت قوة أوروبية إلى لبنان كان المهم لدى البعض أن هذا التدخل الخارجي جاء من جانب قوى مسيحية، وأن ذلك هو الأفضل[87]، ومن ثم ظلت القناعة الراسخة باستمرار لدى أعضاء المنظمات الدينية الأمريكية أن تدخل أوروبا أو الولايات المتحدة هو وحده الكفيل بإصلاح أحوال الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية.

ولم يكن دور المجلس الأعلى للبعثات الأمريكية قاصراً على دعم ومساندة الأقلية المسيحية في الشرق وحسب، وإنما كان له دور فاعل في شرق أوروبا، وكان على قناعة بأهمية إسهامه في حل المسألة الشرقية[88]؛ فخلال أزمة البوسنة عام 1876[89]، انبرت الصحافة الأمريكية إلى تغطية الأحداث، ولجأت كعادتها في خطاب الرأي العام إلى استثارة العواطف الدينية، فكان العنوان البارز في جريدة *New York Times* في يناير 1876 "الترك في مواجهة المسيحية"، وأفاض الكاتب في الحديث عن "المحمديين المتطرفين"، معتبراً أن الحل الوحيد هو إنهاء الوجود التركي من شرق أوروبا تماماً، وهكذا، فبعد وجود الأتراك في البلقان لأكثر من أربعة قرون متصلة ظل ينظر إليهم على أنهم غرباء[90].

ومع استمرار الصراع في البلقان استمرت الحملة الصحفية على المنوال السابق مؤكدة أن "التطرف المحمدي قد أطلق من عقاله وأن حرباً مقدسة يخوضها الإسلام ضد مسيحيي الدولة العثمانية"، وأن مشكلة المسلمين تكمن في تطرف قادتهم الراغبين في عودة العصر الذهبي للهلال الإسلامي، وكررت مجدداً الحديث عن وجوب مشاركة الولايات المتحدة في حماية المسيحيين بالدولة العثمانية، كما أن على أوروبا واجباً أخلاقياً في حماية المسيحيين البلغار بتغيير السياسات الحالية الداعمة لبقاء الدولة العثمانية بدعوى التوازن الدولي[91]، وعلى الرغم من حجم النفوذ البريطاني في المنطقة فإن التقارير التي أرسلتها البعثات الأمريكية كان لها الأثر الأكبر في الرأي العام البريطاني[92]، واستمرت البعثات الأمريكية في مواصلة ضغوطها عبر الصحافة البريطانية، ووصفت صحيفة *Daily News* الدولة العثمانية بأبشع الأوصاف، ووصفت الأتراك بأنهم

أعداء للإنسانية ونددت أيضاً بحكومة المحافظين[93]، حتى اضطر رئيس الوزراء Disraeli أخيراً إلى الموافقة على إرسال وفد للوقوف على "المذبحة" التي حلت بالبلغار ونتائجها، ولم يكن ذلك كافياً لإرضاء رؤساء البعثات الأمريكية الذين أصروا على وجوب اجتثاث الوجود التركي برمته من البلقان[94].

وتحت وطأة البعثات الأمريكية وضغوطها، شارك القنصل الأمريكي في المناقشات المتعلقة بوضع دستور الدولة المزمع إعلان استقلالها في بلغاريا، وعلى الرغم من الحماسة فإن الإدارة الأمريكية لم تؤيد خطوة إعلان الدستور المنتظر، وهكذا، فعلى الرغم من صمت الإدارة من الناحية الرسمية، فإن الأمة الأمريكية لم تكن صامتة؛ فالقناصل والبعثات الدينية والصحافة لعبوا دوراً مهماً في عرض القضية والدفاع عنها أمام الرأي العام، وكان البلغار مدركين بدورهم لهذا الدور وممتنين له[95]. على أية حال، فقد ظلت البعثات الأمريكية تمارس نشاطها داخل الدولة العثمانية على الرغم من نشوب الحرب الروسية التركية عام 1877 في ظل حماية ست قطع بحرية أمريكية في البحر المتوسط، ودون الخوض في تفاصيل كثيرة فقد واصلت البعثات الأمريكية دورها في الدفاع عن الأقليات المسيحية، وكانت في هذه المرة دفاعاً عن القوميين الأرمن خلال صراعهم مع الدولة العثمانية، وأثار ذلك الدولة العثمانية التي اتهمت أعضاء البعثات رسمياً بالتدخل في شؤونها الداخلية، حتى إن السلطان عبدالحميد شرع في التضييق على المدارس الأمريكية، وأصبحت هناك مطالبات بمراجعة المناهج الدراسية، واعتبر البعض أن تلك الإجراءات من شأنها زيادة الكراهية للمسيحية، كما تعرضت بعض الممتلكات الخاصة للاعتداء وبادرت الحكومة الأمريكية عدة مرات بإرسال بعض قطع البحرية المزودة بالمدافع إلى المياه التركية لحماية الأرواح والممتلكات التابعة للبعثات الأمريكية[96].

ولم يكن أثر المنظمات الدينية الأمريكية قاصراً على الجوانب السياسية وحدها على النحو السابق، بل كان العمل قائماً على قدم وساق أيضاً في المجال الثقافي بصفة عامة والتعليمي على نحو خاص، وبذلت تلك البعثات ما وسعها لإنشاء مؤسسات تعليمية دينية في أرجاء الدولة العثمانية، لعل من أبرزها

المحاولات المستمرة التي قام بها "Christopher Robert" التاجر الثري بنيويورك مع "Cyrus Hamlin" عضو المجلس الأعلى للبعثات الأمريكية لتمويل وإنشاء Robert College بالعاصمة استانبول[97].

وعندما عرض الطلب في البداية رفضت السلطات العثمانية الموافقة عليه نظراً للمخاوف التي أبدتها الجماعات الدينية الأخرى، خاصة قنصلي روسيا وفرنسا؛ حيث اعتبرا أن بناء الكلية المذكورة سيؤدي إلى زيادة نفوذ البروتستانت على حساب الكاثوليك والأرثوذكس، ومن ثم مارسوا ضغوطاً على السلطان العثماني لرفض المشروع، إلا أن المنظمات الأمريكية لم تيأس، واعتمدت على شبكة علاقاتها القوية والنافذة بين أقطاب السلطة والمال، مثل George Morgan وسرعان ما تم إجراء الترتيبات اللازمة بحضور الوزير التركي المفوض بالولايات المتحدة، ثم جرت موافقة السلطان رسمياً على إنشاء كلية روبرت في ديسمبر عام 1868، وكان لتلك الكلية، فيما بعد، علاقات خاصة مع بلغاريا، ولعبت دوراً ملموساً في الحرب الروسية التركية عام 1877[98].

الخاتمة

لم تكن النظرة للإسلام والوعي به في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر نابعة من فراغ بل كانت امتداداً للسياق التاريخي والإرث المعرفي السابق الذي تراكم عبر سنوات خلت، وتم تقبله، في الأغلب، دونما نقد أو مراجعة؛ ففي البدايات الأولى خلال موجات نقل العبيد من إفريقيا عبر الأطلنطي بدا أن صورة الإسلام كانت ممزوجة بشيء من الدهشة والغرابة، ثم جاءت أعمال القرصنة وتجارب الأسر في شمال إفريقيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لتضفي على الصورة مسحة عدائية زادت مع تعارض المصالح التجارية وطموحات الولايات المتحدة في أن تكون قوة بحرية عبر البحار، وتفاقمت إلى حد المواجهات المسلحة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فيما عرف بحرب البرابرة الأولى والثانية.

وعلى الرغم من سياسة الحياد المعلنة من جانب الحكومة الأمريكية فقد

شهد القرن التاسع عشر، انغماس المنظمات والجمعيات الدينية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها في البحث لها عن دور خارجي بعد أن شكل المجلس الأعلى للبعثات الخارجية، ووجدت ضالتها في الدولة العثمانية التي توالت عليها البعثات البروتستانتية على الرغم ما صادفها من عقبات، وسرعان ما صارت – بفضل نفوذها المتزايد وعلاقاتها الوثيقة بالدبلوماسية الأوروبية – طرفاً فاعلاً بقوة في أحداث المسألة الشرقية، وقد تجلى دور تلك البعثات بصورة واضحة خلال أحداث عديدة مثل ثورة اليونان عام 1821، وحرب القرم وأحداث لبنان عام 1860، وبالجملة فإن تلك البعثات كانت دائماً طرفاً حاضراً ومعبراً عن الأقليات المسيحية داخل الدولة العثمانية، ونذرت نفسها للدفاع عنها، فتبنت ادعاءات تلك الأقليات بلا تمحيص أو مواربة، وكان خطابها الدائم الترويج لاضطهاد تلك الأقليات وتصدير رؤية أحادية للرأي العام، مفادها أن كل المواجهات داخل الدولة العثمانية هي صراع ديني بين الهلال والصليب.

ومن جهة أخرى فإن الرؤية الأوروبية تجاه الإسلام والمسلمين، التي كانت في مجملها عدائية، قد شقت طريقها للعالم الجديد ولقيت رواجاً وانتشاراً، وكان لتلك الرؤية بالغ الأثر؛ حيث انتقل التقليد الأوروبي في دراسة الإسلام إلى الولايات المتحدة وترسخ تدريجياً بمرور الوقت وترددت في هذا الإطار أسماء مثل د.ب مكدونالد، وأ.هـ جب، وبرنارد لويس وغيرهم[99]، والأهم أن تلك النظرة لم تظل حبيسة الدراسات الأكاديمية، وإنما ترددت أصداؤها أيضاً لدى دوائر صنع القرار السياسي.

ومن الأهمية بمكان التشديد على أن قطاعاً رئيساً من المستشرقين قد جاءت دراساتهم للإسلام من خلال تجاربهم السابقة في الدراسات اللاهوتية، بل إن بعضهم قد انتظم بصورة رسمية في سلك الهيئات الدينية والكنسية، كما أن آخرين وجدوا أنفسهم في هذا المجال مصادفة بحكم خلفيتهم العسكرية أو إقامتهم لبعض الوقت في بلد إسلامي، وفي الأغلب الأعم تلقى جل الباحثين تدريباً لاهوتياً ولغوياً وغابت عنهم في كثير من الأحيان الجوانب التاريخية والاجتماعية[100].

وصفوة القول إن المنظمات الدينية الأمريكية كان لها دور فاعل في صياغة الرأي العام داخل الولايات المتحدة، ولا يخفى بطبيعة الحال أن أعضاء تلك المنظمات قد حملوا في طياتهم - بلا شك - نزعة أيديولوجية قادتهم للعمل بحماسة وبرؤية مسبقة عن أنفسهم والآخرين[101]، ولطالما رأوا في ذواتهم أنهم حملة الحضارة والدين، بينما الآخرون مستغرقون في سبات الجهل والظلام، ولعل الخطورة التي صاحبت عمل تلك المنظمات قد تمثلت في تعبيرها عن جمهور عريض، ويبدو أن ذلك قد جعلها حركة قومية بالمعنى الحقيقي فنالت الدعم المادي والروحي، ومن ثم فإن الصورة النمطية التي نشروها عن الإسلام والمسلمين حظيت بالرواج والمصداقية[102].

وفي نهاية المطاف فإن الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين في الولايات المتحدة كانت ذات طابع سلبي وغابت الأصوات الموضوعية الخافتة في خضم التأثير الهائل الذي بثته المنظمات الدينية التي حظيت بتأييد جارف من قبل الرأي العام، لاتزال آثاره سائدة حتى اليوم، وعوضاً عن محاولة فهم الإسلام من الداخل فإن الدعوات الاستشراقية، على تباينها، ألحت باستمرار على حتمية إصلاح الإسلام ذاته قياساً على النموذج البروتستانتي[103].

الهوامش والمراجع

(1) لا يمكن اختزال العلاقات بين الإسلام والغرب في البعد الحربي فقط، فهناك أيضاً الجوانب التجارية والثقافية منذ وقت مبكر، راجع، حوراني، إلبرت: **الإسلام في الفكر الأوروبي**، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1994، ص 10-11، وأيضاً، شعبان، فؤاد: **أعمال الرحالة والمبشرين في العالم العربي، (1800-1915) تحليل وصفي**، ضمن بطي، عبيد بن علي: (محرراً)، **كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور**، أبوظبي: مركز جمعة الماجد، 1996، ص 240-241، وكذلك النملة، علي بن إبراهيم الحمد: **المستشرقون والتنصير، دراسة للعلاقة بين ظاهرتين مع نماذج من المستشرقين المنصرين**، الرياض: 1998، ص 6، الطيباوي، عبد اللطيف: **المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: دراسة نقدية**، ترجمة وتقديم: السامرائي، قاسم، الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991، ص 18.

(2) Kidd Thomas S.: **American Christians and Islam: Evangelical Culture and Muslims from the Colonial Period to the Age of Terrorism,** Princeton University Press, 2008, pp.1-2.

وكانت التسمية الشائعة للمسلمين هي "المحمديين" Mohammedan، وظلت سائدة في الولايات المتحدة حتى أوائل القرن العشرين، وكما هو واضح فإن التسمية قد حملت في طياتها ابتداء عدم الاعتراف بالإسلام كدين سماوي، راجع

- Walther, Karine V. "A Door into the Mohammedan World: Islam U.S.Foreign Policy, 1821-1913", **Diss. Columbia University**, 2008, pp.1-2.

(3) - Willis, John Ralph: " Islamic Africa: Reflections on the Servile Estate", **Studia Islamica**, No. 82, 1980, p.148.

(4) - Gomez, Michael A.: "Muslims in Early America", **The Journal of Southern History,** No.4, Vol. 60, 1994, p.682.

وقد قدر البعض عدد المسلمين في الأمريكتين في نهاية القرن التاسع عشر اعتماداً على إحصاءات عامي 1897–1898 بنحو 49,500، منهم 20,500 في أمريكا الشمالية ثم البقية موزعة في أمريكا الوسطى والجنوبية لاسيما مستعمرة جوانا البريطانية التي ضمت وحدها 21,000 ألفاً، وكان عملهم الرئيس تفريغ شحنات السفن الواردة من الهند والصين، وعادة ما عادوا إلى موطنهم الأصلي بعد تحسن أحوالهم المادية، راجع

- Mann, Oskar: "Mohammedanism in the Nineteenth Century", **The North American Review**, No. 528, Vol.171, 1900, pp.755-756.

(5) - "Muslims in Early America", p.679

وأيضاً، إبراهيم، عبد الله عبد الرازق: الجمل، شوقي: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر**، القاهرة: 1998، ص 5–6.

(6) دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، ص 17.

(7) - "Muslims in Early America". pp.680-681.

والجدير بالذكر أن التوسع الكبير لتجارة الرقيق عبر الأطلنطي في منتصف القرن التاسع عشر كان مرتبطاً بالنمو المتزايد لمزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية، وقد أحدث ذلك ثورة في الهند الغربية وفي الاقتصاد الكاريبي على وجه الإجمال الذي كان يعتمد على تصدير التبغ في المقام الأول، سعودي، محمد عبد الغني: "قضايا إفريقية"، الكويت: **عالم المعرفة**، 1980، ص 79.

(8) - "Muslims in Early America", pp.683-684.

(9) - "Muslims in Early America ", p.705.

ورأى البعض أن تأثير المسلمين بدا محدوداً في الوسط الأنجلو أمريكي السائد، راجع: American Christians and Islam. pp.1-2 وانظر: شعبان، فؤاد: **من أجل صهيون، التراث اليهودي المسيحي في الثقافة الأمريكية**، دمشق: دار الفكر، 2003، ص 156-155. ومن الدراسات المهمة حول المسلمين من ذوي الجذور الإفريقية دراسة Douglas Grant عام 1968 عن "أيوب بن سليمان" (1702–1773)، الذي اشتهر باسم "جوب بن سليمان"، وقد ألقت الضوء على المسلمين القادمين من غرب إفريقيا، وهناك أيضاً عمل Terry Alford الصادر عام

1977 عن عبد الرحمن الفوري (1762–1829)، الذي عرف باسم "أمير العبيد"، إضافة إلى دراسة Allan Austin عن عمر بن سعيد (1770–1864) وصدرت عام 1984، راجع

- "Muslims in Early America", p.673.

(10) كانت العديد من السفن الأمريكية وعلى متنها مئات من البحارة والتجار قد تم احتجازها على سواحل المغرب والجزائر فيما بين سنوات 1793- 1784، للمزيد راجع

- Battistini, Robert: "Glimpses of the Other Before Orientalism: The Muslim World In Early American Periodicals, 1785-1800", **Early American Studies**, Spring. 2010, p.447.

(11) وقعت حرب البرابرة الأولى ما بين عامي (1801 و 1805) والثانية عام 1815؛ حيث اعتادت دويلات شمال إفريقيا (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وكانت سيادة الدولة العثمانية عليها سيادة اسمية) فرض رسوم على السفن مقابل حمايتها من القرصنة، وكانت الدول الأوروبية قد تقبلت ذلك ولكن تلك الترتيبات اختلت بعد قيام الثورة الأمريكية، وكان من بين نتائج تلك الحرب امتلاك أمريكا لأسطول بحري قوي، وتلاشى دور دويلات الساحل الإفريقي، راجع

- Jeffrey H.: Solomon. "Unsettling the Nation: Anti-Colonial Nationalism And Narratives of the Non-Western World in U.S Literature and Culture, 1783-1860". **Diss, University of Southern California**, 2011, pp.175-177.

(12) من المدهش أن الكنيسة الكبرى في شمال إفريقيا، وهي كنيسة القديس أوغسطين، أطلقت أيضاً لقب البرابرة على مواطنيها الذين لم يدخلوا في المسيحية، راجع

- American Christians and Islam, p.2.

(13) بدأت الصحف المحلية في نشر قوائم المحتجزين تباعاً دون إضافة أو تعليق مثل Massachusetts Magazine في مارس 1794، ثم توالت العديد من النشرات، وكان لها أثر عدائي بين قطاعات الرأي العام، راجع

- "Glimpses of the Other before Orientalism", p.451.

(14) - MacLean, Gerald, and Matar, Nabil: **Britain & the Islamic World 1515-1713**. F., Oxford. 2011, p.128.

(15) - Britain & the Islamic World 1515-1713, p.128.

وقد اتسمت يومياته بالطابع الإخباري.

(16) - American Christians and Islam, pp.2-3.

(17) خلال المواجهة بين الإسلام والغرب جرى التكريس لرؤية الشرق بوصفه موضعاً يتعذر سبر غوره، موضعاً للغرابة ومثاراً للدهشة باستمرار، راجع: ساردار، ضياء الدين: **الاستشراق، صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية**، ترجمة: فخري، صالح: مراجعة: خريس، أحمد، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2012، ص 23.

(18) - American Christians and Islam, pp.2-3

(19) - American Christians and Islam, p.3.

(20) - "A Door into the Mohammedan World", pp.3-4.

(21) - Friedman, Ellen G: **Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age**,1983, pp.26-27.

(22) - Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age, pp.30-31.

(23) - "A Door into the Mohammedan World", p.7.

(24) - Britain & the Islamic World 1515-1713, p.131.

(25) - Britain & the Islamic World 1515-1713, p.127.

(26) في بعض الأحيان كانت هناك شكوك أحيطت بالأسرى العائدين بأنهم ربما صاروا مسلمين ويعملون للأعداء مثل نموذج Thomas Pellow الذي طال مكثه بالمغرب لمدة ثلاث وعشرين سنة، وعانى من النظرة له باعتباره مسلماً، وقد كان ذلك ربما دافعاً للمبالغات التي نشرها البعض في أعمالهم لاحقاً

- Britain & the Islamic World 1515-1713, p, 129.

(27) - "Unsettling the Nation", pp.171-172.

(28) - Britain & the Islamic World 1515-1713, pp.127-128.
Al-Hibri, Azizah Y: " Islamic and American Constitutional Law: Borrowing Possibilities or a History of Borrowing", **Journal of Constitutional Law**: The University of Pennsylvania, Vol.1:3, 1999, pp.494-5.

(29) كان الدافع الرئيس لبريطانيا في الشرق هو التجارة وليس روح المغامرة كما ادعى البعض، كما أن البريطانيين الأوائل كانوا يبحثون عن فرصة عمل حقيقية لهم في الشرق، وكانوا موضع ترحيب في الدولة العثمانية وفارس؛ لأن المجتمع الإسلامي كان متسامحاً مع مختلف الأديان وسمح بالإقامة للمسيحيين واليهود في الوقت الذي لم يكن بوسعهم التنقل بأمان إلى إسبانيا أو غيرها من الدول الكاثوليكية المعادية للبروتستانت.

- "Islamic And American Constitutional Law", p.15.

(30) - Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age, pp.6-7.

والجدير بالذكر أنه كان هناك اعتقاد شائع لدى المستوطنين البيورتان في أمريكا الشمالية في الربط بين انهيار الإسلام وخراب الكنيسة في روما، وصار ذلك معروفاً لدى أتباع الصهيونية المسيحية.

(31) - Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age, pp.7-8.

(32) - "A Door into the Mohammedan World", pp.7-8.

في إنجلترا – على سبيل المثال – شاعت كتابات John Foxe وترجم Richard Grafton نصاً فرنسياً بعنوان "الدولة العثمانية وشريعة المحمديين" عام 1542، وفي عام 1543 ترجم لأول مرة، ونشرت بعض المختارات من القرآن الكريم من اللاتينية إلى الإنجليزية قام بها Robert of Ketton، وكرر الكثير من الكتاب الإنجليز الأخطاء المؤسسية نفسها عن الإسلام الذي صار يصاحبه مفردات مثل الطغيان، القسوة، والعبودية، والحريم، وصارت تلك لصيقة بمفهوم الإسلام ذاته، وأعيد إنتاجها مراراً دون فحص أو مراجعة، راجع

- Britain & the Islamic World 1515-1713m p.31.

(33) - "A Door into the Mohammedan World", pp.7-8.

تجدر الإشارة هنا إلى أن موقف من اعتبروا أنصار الاتجاه العقلي، مثل فولتير ورينان، كان سلبياً تجاه الإسلام، راجع

- Pikkert, Pieter: "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture?", **Diss, University of South Africa**, 2006, pp., 51-52.

(34) - Erhan, Cagri: "The American Perception of the Turks: An Historical Record", **The Turkish Yearbook**, Vol. xxxi, 2000, pp.76-77.

(35) - Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age, pp.17-18.
Islamic and American Constitutional Law, p.496.

(36) - Britain & the Islamic World 1515-1713, p.32.

(37) كانت النظرة السائدة تجاه الإسلام والمسلمين في عهد الملكة "أليزابيث"، وحتى عهد الملكة "آن" أنهم رمز للقوة ولهم نزعة توسعية ويمثلون تهديداً لأوروبا، وكتب سير "توماس مور" كثيراً عن الترك ونزعتهم التوسعية على أساس ديني، كما دعا مارتن لوثر وجون كلفن إلى حرب الدولة العثمانية

- Britain & the Islamic World 1515-1713, p.26.

(38) انتشرت الكتابة عن القصص الشرقية آنذاك، وأحصى البعض العديد منها، وهي في معظمها قصص قصيرة للتسلية تتحدث عن الولاء ـ الطموح، ومستوحاة من ألف ليلة وليلة، ومن ثم فإن شخصية المسلم قد بدت طبيعية، فلا هو شرير أو غريب الأطوار وشأنه شأن الأوروبيين والأمريكيين يواجه معضلات الحياة، راجع

- "Glimpses of the Other before Orientalism", pp.454-455.

وكتبت الليدي وارتلي: "إن الأتراك ليسوا على قدر من قلة التهذيب كما نعتقد"، الإسلام في الفكر الأوروبي، ص 169.

(39) - "Glimpses of the Other before Orientalism", pp.452-454.

وأيضاً، الإسلام في الفكر الأوروبي، ص 25.

(40) - "Glimpses of the Other before Orientalism", p.457.

(41) - "The American Perception of The Turks", p.78.

(42) ويذكر أن كريستوفر كولومبس قد أشار في أحد خطاباته لملك إسبانيا إلى أنه يريد أن يكتشف ممالك ومدناً جديدة يضمها للتاج الإسباني ويهدي شعوبها للمسيحية، ثم يجندها فيما أسماه "حرب الحياة أو الموت ضد إمبراطورية محمد"، كما أعرب عن هدفه النهائي، وهو استعادة الأراضي المقدسة، خاصة القدس، تمهيداً لنزول مملكة الله على جبل صهيون"، من أجل صهيون، ص 25، وعندما تم تأسيس كرسي لدراسة اللغة العربية بجامعة كمبردج جاء في خطاب المراجع الأكاديمية بتاريخ 9 مارس 1636: "ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بإلقاء الضوء على المعرفة، وهي ما تزال بعد محتبسة في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة،

وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة النصرانية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات" ، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية، ص 21.

(43) السماك، محمد: **الصهيونية المسيحية**، الطبعة الرابعة، بيروت: دار النفائس، 2004، ص 187-188.

(44) أعمال الرحالة والمبشرين، ص 223-224، هلال، رضا: **المسيح اليهودي ونهاية العالم، المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا**، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الشروق، 2000، ص 11.

(45) فيشو، جان بيار: **الحضارة الأمريكية**، ترجمة: خليل، أحمد خليل، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992، ص 66.

(46) الواقع أن فكرة توطين اليهود في فلسطين كانت متداولة منذ وقت مبكر؛ فقد نشر المستشار القانوني لملك بريطانيا عام 1621 أول مشروع دولي لإقامة إمبراطورية للأمة اليهودية بعنوان الاستعادة العظمى، وحث الأمراء المسيحيين على استعادة تلك الإمبراطورية التي تمهد لعودة المسيح المخلص، وفي القرن الثامن عشر كانت ورقة نابليون اليهودية، وكان اللورد Shaftesbury (1801-1885) من أبرز الساسة البريطانيين المؤيدين لهذه الدعوة، وتقدم إلى مؤتمر لندن عام 1840 باقتراح توطين اليهود بفلسطين، وصك آنذاك الشعار المعروف "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وفي الولايات المتحدة هاجر القس Warder Gresson إلى فلسطين واعتنق اليهودية، وعمل مستشاراً للحكومة الأمريكية في القدس، ثم عين قنصلاً بها عام 1852، وكان محور نشاطه إنشاء وطن لليهود بفلسطين، كما قاد William E.Blackston (1841-1935) حملة عام 1891 للتوقيع على عريضة تطالب بإنشاء دولة لليهود، ووقع عليها شخصيات بارزة مثل رئيس مجلس النواب وقضاة وصحفيين، راجع: الحسن، يوسف: الانحياز، دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2003، ص 22-23، أيضاً، الصهيونية المسيحية، ص 37، ص 57.

(47) - Barrett, John: "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", **Diss, Baylor Uni**. 2012. p.51.

(48) - International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.52.

(49) بلغت عملية تهويد المسيحية درجة كبيرة، من أبرزها "العقيدة الألفية" Milleniumansit Doctrine، وهي عقيدة تعود في جذورها إلى اليهودية، لكن البروتستانتية أحيتها وجعلتها فكرة مركزية في عقيدتها، وتدور حول عودة المسيح المخلص الذي سيحكم العالم لألف عام يسود فيها السلام والعدل، انظر: الانحياز، ص 17، وراجع أيضاً: عارف، محمد: **صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي**، ترجمة: رانيا خلاف، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006، ص 53-54.

(50) من أجل صهيون، ص، 42-48.

(51) من أجل صهيون، ص 69، وراجع للمزيد: الانحياز، ص 11-12.

(52) من أجل صهيون، ص 103–104.

(53) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.31-32.

(54) البرسبتارية هي جزء من حركة الإصلاح البروتستانتي، وانتقلت إلى العالم الجديد بفضل المهاجرين من أصول إسكتلندية وأيرلندية، وكانت الكنيسة البرسبتارية جزءاً من المجلس الأعلى للبعثات الأمريكية، ولقي نشاطها ترحيباً من جانب إبراهيم باشا خلال وجوده بالشام (1831–1840)، وشجع البعثة البرسبتارية على نقل نشاطها ومطبعتها من مالطة إلى بيروت، كما كان لتلك البعثة نشاط تعليمي مميز جذب إليها البعض، مثل بطرس البستاني الذي قام بترجمة الإنجيل للعربية ليدرس بالمدارس الأولية، راجع

- Jonson, Michael: **All Honorable Men, The Social Origins of War in Lebanon**, Oxford, 2001, p.138

(55) - All Honorable Men, The Social Origins of War in Lebanon, pp.33-34.

وكان لهذا البعد الديني أثره ولم يكن غريباً أن يكون حاضراً بقوة لدى الرحالة الأمريكيين الذين زاروا الشرق في القرن التاسع عشر، انظر

- Eduardus Franciscus Van de Bilt: "Proximity and Distance: American Travelers to the Middle East, 1819-1918", **Diss, Cornell University**, 1985, pp.32-33.

وأيضا، سعيد، إدوارد: **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة: عناني، محمد، القاهرة: دار رؤية، 2006، ص 273–274.

(56) - "A Door into the Mohammedan", pp.53-54.

- Earle, Edward Mead," American Missions in the Near East", **Foreign Affairs**. N.3.April, 1929, pp.405-406.

وبحلول عام 1875 كان هناك 137 بعثة أمريكية و364 عاملاً عثمانياً و77 كنيسة، بأربعة آلاف عضو و244 مدرسة ضمت نحو ثمانية آلاف تلميذ في أنحاء الدولة العثمانية، وكان الهدف الأول هو النهوض بالمسيحيين في الشرق أولاً، ثم الدعوة بين المحمديين ثانياً، على أمل أن يصبحوا محاطين بكثرة سكانية من البروتستانت.

(57) - "The American Perception of the Turks", pp.86-87.

(58) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.48-49.

(59) نشطت البعثات أو الإرساليات الأمريكية في لبنان؛ فتم إنشاء العديد من المدارس وتعاون البعض معها مثل بطرس البستاني (1819–1883) الذي ترك الكنيسة المارونية واعتنق المذهب البروتستانتي، الإسلام في الفكر الأوروبي، ص 202، وإن كان البعض يعتقد أن أثرها كان محدوداً على المستوى الثقافي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص 211.

(60) - "A Door into the Mohammedan", pp.29-30.

وانظر: مصطفى، أحمد عبد الرحيم: **في أصول التاريخ العثماني**، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار الشروق، 2003، ص 188.

(61) ولم ينس إيفرت مخاطبة الشعب الأمريكي بقوله: "إن اليونان والولايات المتحدة أكثر اتحاداً، ليس فحسب لقضية الحرية والتحرير، وليس لأنكم أحرار وكرماء وذوو نزعة إنسانية، ولكن لأنكم مسيحيون"، وظل إيفرت على رأس إحدى الجاليات الفعالة في مساعدة اليونانيين في بوسطن.

(62) - "A Door into the Mohammedan", p.32.

(63) كان مبدأ مونرو (Monroe Doctrine) جزءاً من الرسالة التي بعث بها الرئيس إلى الكونجرس في 3 ديسمبر عام 1823، وقد تضمن المبادئ الآتية:
أولاً: أن الولايات المتحدة الأمريكية ليس لها أية مصلحة ولا تريد أن تتدخل في شؤون أوروبا السياسية.
ثانياً: أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد من الدول الأوروبية الابتعاد عن شؤون العالم الجديد السياسية.
ثالثاً: أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تحجم عن قتال أية دولة تحاول أن تفرض أو تبسط سيطرتها على نصف الكرة الغربي.
رابعاً: أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تتدخل في شؤون المستعمرات أو الممتلكات الحالية التي للدول الأوروبية في العالم الجديد، راجع: عبد العزيز، عمر: **دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1992، ص 379-380.

(64) أشار في حديثه أمام الكونجرس إلى أن اليونان تتطلع إلى معروفنا، وقد صار لاحقاً وزيراً للخارجية، وأبدى اهتماماً ملحوظاً بعمل البعثات الأمريكية في الدولة العثمانية.

(65) في نهاية 1824 وصلت التبرعات إلى ما يربو على 30 ألف دولار فضلاً عن معونات أخرى
- "A Door into the Mohammedan", p.33.

(66) - "A Door into the Mohammedan", pp.34-35.

(67) - "A Door into the Mohammedan", p.33.

(68) الهللينية – Phil-Hellenism – نسبة إلى هيلاس Hellas الاسم القديم لليونان، وهي حضارة نشأت قرب أواخر الألف الثاني من الميلاد وظلت قائمة حتى القرن السابع الميلادي، وقد ظهرت أولاً في حوض البحر الإيجي، وانتشرت من هناك إلى المناطق الواقعة حول سواحل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، ثم امتدت عبر القارة شرقاً إلى آسيا الوسطى والهند، وغرباً إلى سواحل شمال إفريقيا وأوروبا وترجع جذور ميلاد الحضارة الهللينية إلى مدينة أثينا، وجوهر الهللينية ليس جغرافياً أو لغوياً بل هو اجتماعي وثقافي، كما أنها تعنياحترام كل ما وضعه قدامى اليونان من تقاليد وقوانين ودساتير وفنون وإشاعتها والاعتماد عليها؛ لأنها أفضل أسلوب لتحقيق الحق والخير والجمال، راجع: علي، عبد اللطيف أحمد: **التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي**، بيروت: دار النهضة العربية، 1976، ص 105-106-110.

(69) من أبرز هؤلاء Edward Everett, Thomas Winthrop, Charles King, William Bayard، وعندما زار الأمريكي Henry Post اليونان خلال الحرب وصدر كتابه عام 1830 بعنوان (رحلة إلى

اليونان والقسطنطينية) خلال عامي 1827–1829 استخدم المفردات المعادية للترك التي صارت ذائعة لدى العامة ومعروفة، راجع

- "American Perception of the Turks", p.83.

- "American Perception of the Turks", p.82. (70)

يذكر أنه عقب تحطم الأسطول المصري في موقعة نيفا رينو عام 1827 بواسطة الدول الكبرى فإن الرئيس الأمريكي آنذاك John Adams قد أثنى على نجاح العملية.

(71) من أوائل الأعمال المنشورة عن الدولة العثمانية عمل الكابتن Henry D.S.Dearborn عن رحلته إلى البحر الأسود وتركيا ومصر وطبع في بوسطن عام 1819، وتكمن أهميته في أنه كان شاهد عيان، وتضمن وصفاً وافياً للنواحي الجغرافية والموانئ البحرية ولطبيعة التجارة، كما أنه لم يكن متحيزاً، وكانت هذه فيما يبدو المرة الأولى التي رسمت فيها صورة إيجابية عن الدولة العثمانية في الولايات المتحدة، ويبدو أن أول من قام برحلة إلى الدولة العثمانية هما Joseph Allen Smith و Joel Roberts اللذان وصلا إلى إزمير عام 1806، كما وصل يخت أمريكي اسمه كليوباترا إلى الدردنيل عام 1817، كما قدم آخرون عام 1819، إلا أنهم لم يتركوا كتابات أو يوميات لهم

- "American Perception of the Turks", pp.79-81.

- "American Perception of the Turks", pp.85-86. (72)

وتقريباً فإنه ما بين 1850-1840 كان يصدر سنوياً كتاب أو اثنان من الأمريكيين المقيمين في الليفانت والدولة العثمانية من القناصل أو أعضاء البعثات الدينية.

- "American Perception of the Turks", pp.86-87. (73)

(74) عن تطورات المسألة الشرقية، راجع: دولينا، نينل إألكسندروفنا: **الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر**، ترجمة: محمد إبراهيم، أنور، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1999، ص 25–33.

(75) عبد العزيز، عمر: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، 1815–1919، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000، ص 108–116.

- "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.37-38. (76)

(77) كان لافتاً للانتباه ترحيب الكثير من البعثات التبشيرية بهزيمة روسيا لاعتقادها أنها كانت ستسعى لطرد تلك البعثات وإيقافها عن العمل وتعزيز دور الكنيسة الأرثوذكسية فقط في اليونان

- "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.41.

(78) سنو، عبد الرؤوف: "العلاقات الروسية العثمانية، (1687–1878)"، **تاريخ العرب والعالم**، العدد، 77–78، 1985، ص 3–6.

- "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.39. (79)

- "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture", p.63. (80)

(81) الانحياز، ص 34-33، وكمثال على نفوذ البعثات الالتماس المقدم إلى السفير البريطاني كاننج عام 1846 لمساعدة البروتستانت في الإمبراطورية العثمانية، واستطاع الحصول على موافقة السلطان رسمياً والاعتراف بها، وأسبغ ذلك عليها الحماية والحرية الدينية، كما نص الخط الهمايوني الصادر عام 1856 على مساواة جميع الأقليات المسيحية

- "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture", p.64.

(82) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.51.

(83) - "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture", p.60.

خلال أزمة 1860 كانت فرنسا تناصر المسيحيين بينما كانت إنجلترا تناصر الدروز، راجع، الاستشراق، ص، 306.

(84) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.45-46.

(85) الواقع ليست لدينا معلومات حول جمعية البؤساء السوريين، ويبدو أن ظهورها كان عقب الصدام بين الدروز والموارنة عام 1860، وانضم إليها بعض المتعاطفين من الساسة والشخصيات العامة، وإن كانت تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى تنامي الرأي العام المعادي للدولة العثمانية واتهامها باضطهاد المسيحيين في سوريا ولبنان، وفي عام 1872 كان القس لويس صابونجي (1831–1930) التابع للكنيسة السريانية في زيارة لمدينة نيويورك ونشر رسالة بعنوان "رسالة من الأم العجوز فينقيا إلى ابنتها الصغيرة أمريكا"، وربما كانت بالأساس إحدى المحاضرات التي ألقاها في الجمعية، وقد تحدث فيها نيابة عما أسماه بالأمة السريانية، وقد حمل صابونجي فيها بعنف شديد وغرابة على الإسلام والمسلمين زاعماً أنهم وراء التدمير والخراب في كل مكان، كما انتقد أيضاً الترك واصفا إياهم بالعداء للحضارة والمرأة، راجع

- Visser, R.W: **Identities in Early Arabic Journalism: The Case of Louis Sabunji,** Amsterdam, 2014, pp. 85-86.

(86) كان Henry Jessup العضو البارز بالبعثات الأمريكية على قناعة تامة بأهمية التدخل البريطاني في المسألة الشرقية معتبراً أن ذلك هو الحل لما واجهته البعثات من عقبات، كما أثنى على الوجود البريطاني في الهند مشيراً إلى أنه لفائدة المسلمين، وكان رأيه أن البعثات الأمريكية التبشيرية تعمل في تناغم تام مع الاستعمار البريطاني، راجع

- "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.74-75.

(87) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.47-48

بدا دائماً، من وجهة نظر أعضاء المنظمات الدينية، التماهي بين المسيحية والتحضر، فهما وجهان لعملة واحدة وجهة واحدة، راجع

- "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture?", pp.47-48.

(88) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.48.

(89) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.70.

كثيراً ما أشاد أعضاء البعثات بالأثر الإيجابي لهم، ودللوا على ذلك بنشر دراسة حول

العثمانيين البروتستانت الذين استفادوا من تلك البعثات، مثل رسائل هاجوب أفندي أحد البروتستانت الأتراك البارزين.

(90) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.60-61.

(91) ذهب البعض إلى أن عدد ضحايا ما سمي بمذبحة البلغار استناداً إلى مصادر البعثات الدينية بلغ نحو عشرة آلاف، وبالطبع فإن ذلك التقدير مبالغ فيه، انظر

- "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture?", p.60.

(92) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.67.

(93) حول جذور الصراع في البلقان راجع: شوجر، بيتر: **أوروبا العثمانية، 1354–1804**، ترجمة: الدسوقي، عاصم: الطبعة الأولى، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1998، ص 131–132.

(94) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.65.

والجدير بالذكر أنه لم تكن البعثات الأمريكية وحدها على الساحة، فقد سعت روسيا أيضاً إلى أن تكون لها الولاية على الأرثوذكس، وقد استغلت روسيا العلاقات الدينية والاقتصادية مع شرق أوروبا إضافة إلى بزوغ العامل القومي، وسعت إلى توظيفه لصالحها في البلقان، كما لاحظ المؤرخ العثماني جاستين مكارثي أن تقسيم الإمبراطورية العثمانية وظهور دول البلقان أمر قد قرره القناصل الأوروبيون منذ وقت بعيد.

(95) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East" ,pp.72-73.

(96) - "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture?", pp.66-67.

(97) قدر البعض إنفاق المجلس الأعلى للبعثات الأمريكية خلال الفترة من عام 1876 إلى عام 1911 بنحو أربعة عشر مليون دولار على القطاع التعليمي والأعمال الخيرية، راجع

- "Protestant Missionaries to the Middle East: Ambassadors of Christ or Culture?", p.59.

(98) - "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", pp.57-58.

أيضاً، في أصول التاريخ العثماني، ص 230–231، وكان رئيس كلية روبرت هو Washburn وكان للكلية دور مهم في التواصل مع السكان المحليين ونقل المعلومات إلى السفراء والقناصل، وظلت مركزاً مهماً في العاصمة لجميع الوفود الأمريكية والأوروبية لتبادل المعلومات. "International Politics, American Protestant Missions and the Middle East", p.71.

(99) الانحياز، ص 30.

(100) أعمال الرحالة والمبشرين، ص 227–231.

(101) الإسلام في الفكر الأوروبي، ص 64.

(102) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: دراسة نقدية، ص 88.

(103) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: دراسة نقدية، ص 46.